

سيرة الأميرة ذات الهمّة بطولة الأنثى وتحولات النص

حسين نشوان*

في الفنون الكتابية الشعبية، ومنها الشعر، والقصة والمثل والحكاية والسيرة، تختلف مكانة المرأة وتتنوع أدوارها باختلاف وظيفة الحقل الأدبي ورسالته الثقافية والشرط الاجتماعي الذي أنتجه.

وقد برز الاهتمام البحثي مؤخرًا بدراسة النصوص الأدبية الشعبية من وجهة علم الاجتماع والانثروبولوجيا لفهم الغائب عن التاريخ الاجتماعي وتحديدًا التاريخ الذي لم يتم تناوله في المدونات الرسمية، فالحكايات والقصص والسير الشعبية، والأمثال والقصيد الشفاهي يمكن أن تؤشر على طبيعة التحولات الاجتماعية وقواها، وتكشف عما تعرضت له بعض الفئات الاجتماعية من ظلم، والهاجس التي كانت تسيطر على السواد الأعظم من الناس في عدد من القضايا التي تتصل بالعدل والحرية، وخصوصًا في المراحل التاريخية العسيرة، وباختصار فهي تكشف عن المسكوت عنه.



* باحث وفنان تشكيلي أردني

تحولات النص ... المجتمع

إنّ قراءة الحكاية/ السيرة الشعبيّة، وحضور المرأة في المتن يدلّنا على التطوّرات والتغيّرات التي جرت في المجتمع، ودواعيها التاريخيّة التي تستدعي طرح سؤال المستفيد منها في التراتب الاجتماعي السابق للحكاية/ السيرة، فالخطاب الشعريّ (الفحوليّ) والمثل الشعبي (الذكوريّ) مثلاً سلطة ما كرسها النصّ، بينما جاءت الحكاية في سماتها وخصائصها ولغتها لتنتمي إلى سمت الأنوثة، أو على الأقل تملك الشرط الأنثوي في الشكل والمحتوى.

لكنّ الأهمّ من ذلك في قراءة شرط ظهور الحكاية ما يمكن تفسيره بعدد من الآراء، ومنها: جورج لوكاش الذي نسب النصّ الروائي/ الحكائي إلى تشكل المدينة ومؤسساتها وتقسيم العمل، أما أدوارد سعيد فربط بين المتخيل الإمبريالي وبروز الحكاية في الطموحات الاستعماريّة التي تنتج ثقافة الرواية/ الحكاية.



ومن المؤكّد أنّ وسائل التعبير في تنوعها كانت تعبّر عن تلك التحولات التي تجري في المجتمع من خلال المحتوى أو الشكل، وتنمو وتتطور بموازاة اللغة، فالإنسان يجترح اللغة، واللغة تصنع الإنسان، وفي هذه الورقة محاولة لاستكشاف تطوّر أدوات التعبير بحضور المرأة ومكانتها في النص، وعلاقة الأخير بالقوى الاجتماعيّة المنتجة له، ولا تتوخّى الدراسة تحليل "سيرة الأميرة ذات الهمة"، وشخصها، بل تحاول النظر في التحوّلات التي تطرأ على الحقول التعبيريّة التي تمثّل خطابات مقصودة يحملها النص ليمثّل سلطة المجتمع المركزيّة، ومن المؤكّد أنّ هذه الحقول لم تولد مرة واحدة بل توالدت بعضها من بعض، ليمتخّض المثل أو القول السائر عن الشعر الذي اتسم بالطقوسيّة البدائيّة، بمعنى أنّ الشعر كان سابقاً للمثل الذي يعالج التفاصيل اليوميّة، ويقع بين الشعر والنثر، أما الرواية/ الحكاية، الملحمة/ السيرة، فقد جاءت لاحقة تاريخياً للشعر والمثل، وظهرت مع اكتمال شرط الزمان والمكان والشخصيات لتدوين الأحداث الكبرى التي تمثّل محطات مفصليّة في المجتمع. وهي غالباً ما تظهر في المحن الكبرى والأزمات تمسّ هويّة الأمة، وتؤدي إلى اختلالات في البنية الاجتماعيّة، كما تضعف مقدرة الأشكال التعبيريّة السائدة على الاستجابة للمرحلة التاريخيّة، فيتمّ اجترار أشكال جديدة تتمردّ على السائد لنزعة وحلم عند الطبقات المهمّشة في تحقيق آمالهم بالعدل والحرية، ولعلّ حكايات "ألف ليلة وليلة" واحدة من السرديات التي نزعّت للتمردّ على السلطة من خلال امتلاك سلطة النصّ النثري الحكائي، الذي لم يكن مجرد انتقال استبدالي أو إحلالي من حقل إلى آخر، بل ثورة في وسيلة التعبير التي تقاوم الموت.

وكان ظهور الحكاية/ السيرة، وإذا ما استبعدنا الدافع الشخصي لـ "شهاد" في دفاعها عن حياتها، فإنّ الحقب اللاحقة التي أنضجت الحقل الحكائي مثلت استجابة للتحديات التي تواجه حياة الأمة ثقافياً وحضارياً في ظلّ بروز شكل جديد لمؤسسات/ السلطة والشعب، وسيادة النمط المدني المعقّد المتنوّع باللغات والأجناس والألوان والمهن، وازدياد الظلم وبروز الفئات المهمّشة ومن بينهم المرأة.



هذه المقدّمة تسعى إلى إعادة قراءة ظهور الحكاية/ السيرة بموازاة تحولات المجتمع، وتبيّن أنّ النصّ وإطاره الشكلي إنّما يصدران عن العقل الجمعيّ ويمثله. فالانشرافات والتمزّقات التي وقعت على العقل الجمعي، جاءت في موازاتها تفكّكات للنصّ السائد/ القديم الذي انتقل من النبذة العالية والإيقاع الرنّان والغنائية الشفافة والبنائية الهندسية المتناظرة إلى خفوت النثر وواقعيته. وهو واقع يكشف عن صراعات مع القوى التي أنتجته، ليشير الشكل الجديد إلى امتلاك الشعب لسلطة النصّ في الحكاية القابلة للتداول في أوساط العامّة. وهو شكل لم يقصّ المثل أو الشعر، بل نجد الكثير من النصوص الشعريّة في الحكايات والسير، وكذلك الأمثال، وإنّما أراد التخفيف من

والحقيقة أنّ الكثير من الدارسين لم يلتفت إلى الهجرات في بناء الرواية/ الحكاية، حيث يحمل المهاجر الحكاية لإضفاء الأسطورة على سلالته من ناحية، ومن ناحية أخرى لإنعاش ذاكرة الأحفاد في ظلّ الأحداث وما تتعرّض له الأجيال من فناء في حالة الحروب، فالحكاية وفق الوجدان الجمعيّ هي مقاومة الموت بالحكي، غير أنّ الهجرة والمنفى يضيفان نوعاً من الثقافة المختلطة التي تميل للنثر الحكائيّ كقاسم مشترك للبيئة الجديدة، وهو ما يفسّر ظهور السيرة الهلالية. والحقيقة أنّ حاصل جمع الآراء المختلفة يفسّر بروز الظاهرة الحكائيّة في عصور صدر الإسلام، وما تلاها من غزو صليبي واستعمار غربيّ للمنطقة.

نص «درامي» متنام ، وهو تطوّر عن البيئة التي تأسست عليها عمارة الشعر في بنائه الشكلي الثابت، المستمدّ من البيئة القبليّة التي تحتاج للرتابة والصوت المنبري، وتجلى ذلك في مفرداتها النقدية، ومنها: البيت والوتد، والصدر والعجز، والزحاف والاستنواق، والأطلال، وبرزت المرأة خلال الحقلين الشعري والمثل مستهدفةً بالنص، وليست منتجةً له.

أما الحكاية، من الحكيم، والقصة من القصّ، فهي مشتقة من تطور مفردات البيئة المدنيّة وظهور تقسيم العمل والأدوات «الآلة»، قص الأثر، قص القماش، والحائك والحيّاكة والحكي، والطرز والتطريز، والسرد/ التسريد سرد الثوب، والحكي من المحاكاة / المشابهة التي قامت فيها الحكاية على وعي البناء وفق نظام توالدي/ تراتبي، ينتج عنه الهيكل المؤسسي، وبموازاته البناء الحكائي الذي يتكوّن من تنوع الأماكن واختلاف الأزمان وتعدد الشخوص بين الرجال والنساء الذي اتاح للمرأة حضوراً مكافئاً وموازيًا للرجل بضرورة القول والفعل، لتمثل الحكاية تجاوزاً لذاتيّة الشعر ولا موضوعيّة المثل بحضور المرأة التشاركي والحواري، وأحياناً «بطولة» النص.

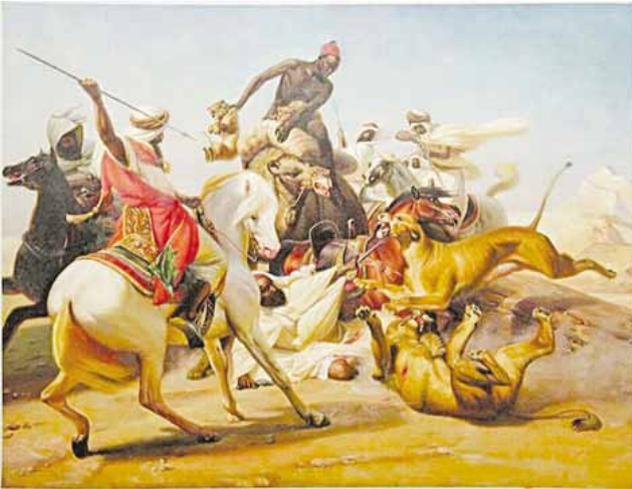
المرأة وتمثّلات الحكاية الشعبيّة

تنقسم الحكايات وفق التصنيف الدراسي إلى الحكايات، والأساطير والقصص و«الخراريف»، ومنها: حكايات الجنّ، الحيوان، وفي الحكايات الشعبيّة يغيب المؤلّف ليعبر الرواة

الموقف الدوني الإقصائي الاتهامي للأنتى، بالسلطة المنوحة للذكر وفق العرف والتقاليد والتشريعات التي نصّصها المجتمع القبلي/ القبيلة. فالشعر يرتبط بالوجدان الذاتي الصادر عن الفرد في علاقته مع المرأة بالفضاء الطقوسيّ البدائي، ولكنه لا يتخلّى عن «سلطة الذكورة» التي منحه إياها النظام الاجتماعي «الفحولة». أما الحكاية الشعبيّة والسيرة فهي من تجليات تحوّل الشرط الإنتاجي من القبيلة إلى مجتمع المدينة وعلاقاتها، والحكاية وإن لم تغب عن باقي الفنون القولية في الجاهليّة، ومنها قصص العرب، إلا أنّ البداية التأسيسية ترتبط بالحقبة العباسية وتحولاتها الاجتماعية التي اتسمت فيها المدينة بالنمط «العولي»، وكان بروز المرأة الحكاءة «شهرزاد» في «ألف ليلة وليلة» وسيرة «الأميرة ذات الهمة» مفارقاً لاشتراطات فحولة الشعر وذكوريّة المثل.

قراءة في المفاهيم

إنّ توصيف المفاهيم لا ينفصل عن تطوّر اللغة التي تمنح الحقول التعبيريّة دلالاتها، فالشعر الذي يصدر عن دواخل النفس، هو التعبير الأول الصامت عن النفس، ومن هنا تأتي أسبقية الشعر بارتباطه بالشعور، وحينما يمتلك دلالاته التداولية يغدو قصداً، قصيدة، أما المثل الذي ينطوي على المضارعة والمماثلة والمحاكاة، فهو يقترن بالخبرة التي تتطلب المقايسة والمقارنة بين الواقعة السابقة واللاحقة باختلاف الزمان والمكان والشخوص لمناسبة التعميم، ومن هنا قيل: «قول سائر» أي عابر للأزمان، وقول، على وزن فعل ينصرف إلى الماضي (تراكم المعرفة) الذي يجعل من السابق معياراً وأنموذجاً للحاضر، وهو يأتي وفق التطوّر بعد الشعور/ الصمت، القصيد/ القصيد، فيأتي القول ليمثل قواعد وتشريعات أو أنظمة مفاهيمية/ ثقافية للمجتمع. ويشير إهمال التعريف عن الفعل/ قول، إلى تأكيد الواقعة دون شخوصها، أما الحكاية، فهي وفق التطوّر تنتسب لقائل/ راوٍ وإن كان غير معروف، وتفصح عن البيئة المحيطة بتفاصيلها وشخوصها وزمانها ومكانها، وتبين شرطها التقني وبيئتها الاجتماعية المدنيّة بتعدّد الألسن والأجناس والانتماءات وفق



المتخيّل الشعبيّ

في كثير من الحكايات الشعبيّة عكست ثقافة المجتمع صورة المرأة في عدد من النصوص والفنون القوليّة بطريقة نمطيّة اقتترنت فيها المرأة بالمكر والحيلة، والكيد، لكنّ ما يهمننا في هذه الدراسة قراءة التمثّلات التي صاغتها الحكاية الشعبيّة في «سيرة ذات الهمّة»، التي وقعت في مرحلة مليئة بالأحداث، وفي الوقت ذاته تمثّل حالة انتقاليّة بين العصر الأموي والعصر العباسي، وخلالها جرت هجرات لعدد من القبائل من الجزيرة العربيّة إلى بلاد الشام، وخاضت عدداً من المواجهات مع الروم أطلق عليها «حروب الثغور».

والسؤال: كيف حضرت المرأة وفق المتخيّل الشعبيّ في سيرة الأميرة ذات الهمّة؟ ومن المهمّ التفريق بين زمن الحكاية/ زمن الروي، فالحكاية الشعبيّة متحرّكة، تخضع للنقص والزيادة وفق أهواء الرواة ونزعاتهم، وتنطوي على كثير من الإسقاطات والرمزيات والإشارات التي تداعب رغبات المتلقي، وتحديداً في الوقت الذي كانت تنتشر فيه هذه الحكايات، وتتعرّض فيه البلاد العربيّة للغزو الأجنبي، فميزة الحكاية الشعبيّة أنّ كلّ متلقٍ يمكن أن يكون راوياً ويضفي عليها لهجته وأمنيته

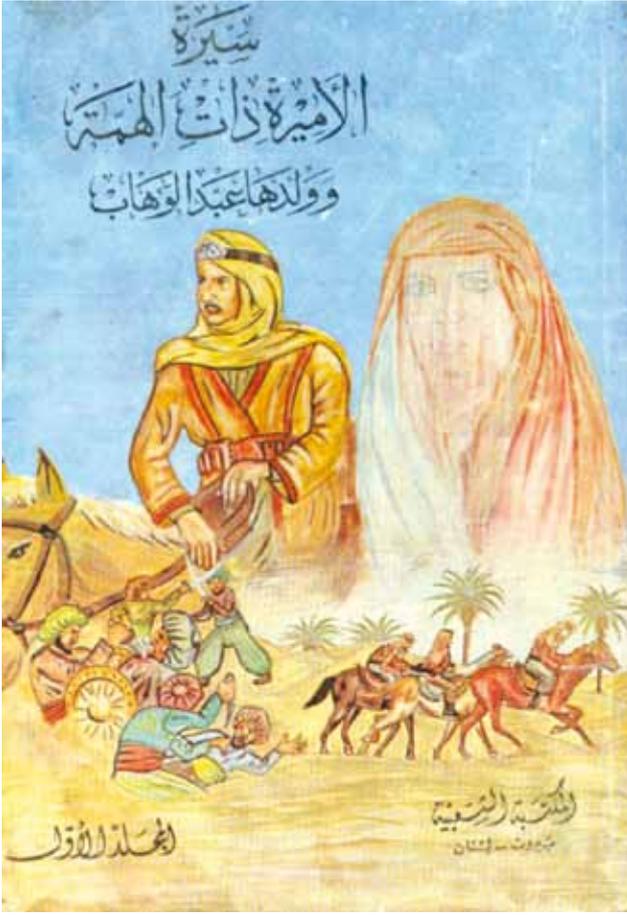


باختلاف المكان والزمان، إلا أنّ الحكاية تقوم على الشخصيات الرئيسيّة التي تحظى بالبطولة، وعدد من الشخصيات الهامشيّة، والأبطال الخارقين، كما تتكوّن من الفكرة/ الثيمة، أو جسم الحكاية الذي يتكوّن من المقدمة والعقدة/ الحبكة، والحل والرسالة، وتقع الحكاية في محيط زمني ومكاني معينين أو مبهمين.

وقد ارتبطت الحكاية/ الرواية بالتدوين، وإن كانت غلبت عليها الرواية الشفاهيّة في الأدب الشعبي الذي أضفت عليه نوعاً من التحويل استجابة لمتطلبات الزمان والعصر ومستوى المتلقي.

وإذا كانت الحكاية الشعبيّة تمثل واحدة من الظواهر التعبيريّة المتطورة التي انتقلت من الشعور إلى القصد والقول ثم الحكي، فقد حاولت التمرد على متبقيات البيئة القبليّة وثقافتها، مستفيدة من التحولات الاجتماعيّة وعلاقات المدينة التي ضعفت فيها العلاقات القبليّة لمصلحة تقسيمات العمل، وهو ما انعكس على الكتاب/ المثقفين في ذلك الوقت الذين خرجوا من القبيلة لانتسابات جديدة تتصل بالمهنة بلغة العصر، ومنهم الصوّاف والغزّال والصّبّاغ والسبّاك، كما انعكس على حضور المرأة الاجتماعي من خلال عمل الجوّاري والمغنيات، وقد برزت مظاهر هذا التحول، في «ألف ليلة وليلة» و«السيرة الهلالية» وعلي الزبيق، سيف بن ذي يزن، سيرة الزير سالم، سيرة السلطان الظاهر بيبرس و«سيرة الأميرة ذات الهمّة»، وجاء التحوّل في حضور المرأة البطلة التي أسّست لها الحكاءة الأولى «شهرزاد» بوعي لا يقف عند تطور مكانة المرأة، بل ما يشهد المجتمع برمته من رؤى وتصورات عن موقع المرأة في الحقل الاجتماعي والثقافي والسياسي، وتمثّلات ذلك في الحكاية والحقيقة أنّ الحكي يمثّل سلطة تقود إلى الفعل. فـ «الحكاية الشعبيّة بمكوّناتها وعلائقها وسيروراتها يمكن أن تصوغ عبر هذه العناصر مجموعة من التمثّلات والرؤى حول المرأة وهي تمثّلات تقدّم جزءاً من «الوعي الجماعي» السائد داخل المجتمع بخصوص موقع المرأة ثقافياً واجتماعياً وسياسياً» (١).

(١) عبد المجيد نوسي: تمثّلات المرأة في الحكاية الشعبيّة. موقع وزارة الثقافة المغربيّة، دراسات فكريّة، الرابط: http://www.minculture.gov.ma/index.php?option=com_content&view=frontpage&Itemid=143



بدأت السيرة بسرد الصراع بين قبيلتي بني سليم وبني كلاب على السلطة وإمارة العرب، وخلال ذلك توفي الحارث الكلابي فهربت زوجته مع عبد لها خوفاً من تعرّضها للسبي أو القتل، فتعرّض لها العبد في الطريق، ولكنها صدته، فقام بقتلها بعد ولادتها، وبدورها كانت وضعت في رقبة الطفل قلادة تبين نسبه وقبيلته، وتشاء الصدف أن يمرّ في الصحراء الأمير دارم الذي يأخذ الصغير ويقوم بتربيته ورعايته ويطلق عليه اسم «جندبة» وحينما يشبّ الفتى ويتقن فنون الفروسية يبحث عن قبيلته، ويخوض معاركهم ويموت في واحدة منها، وكما عاش يتيمًا تلد زوجته ولده الصحاح يتيمًا، ويكون فارسًا مثل والده، ويحب ابنة عمه ليلي، فيطلب منه والدها المعجزات، وهو ما يذكرنا بسيرة عنتره وعبله، فيترك الصحاح القبيلة متوجّهًا للصحراء للبحث عن مهر ابنة عمه، وخلال ذلك يخلص قافلة ابنة الخليفة من اللصوص بعد عودتها من الحج، فيجزل له

ورؤاه ويسقط على الشخصيات مواقفه وهو اجسه. ويشير يوسف اسماعيل (٢) إلى أن النتاج الأدبي الشعبي المكتمل كسيرة الأميرة ذات الهممة لم ينشأ (دفعه واحدة)، وإنما تطوّر عن طريق الرواية الشفوية. ويخلص إلى أنّ مادّة السيرة جمعت من عدد من الأخبار (كولاج) التي تعود لمرحلة ما قبل الإسلام «الجاهلية»، ومرحلة عصر الإسلام: الأموية والعباسية وحتى الفاطمية، وهي أحداث متفرقة ومتناثرة، تمتدّ بين أزمان متضادة وأماكن مختلفة، وانتهت أحداثها بنهاية حكم المعتصم بالله، ولكنها كانت قابلة في الروي لاستدخال عدد من الأحداث التي تشير للحروب الصليبية في بلاد الشام.

حكاية الأميرة ذات الهممة

تتناول سيرة الأميرة ذات الهممة عددًا من الخطوط الزمانية والمكانية التي تتصل بالصراع بين القبائل العربية والحروب مع الروم وعلاقة السلطة بالشعب، وحضور المرأة في تفاصيل حياتها وتحولاتها وعلاقاتها وحروبها.

ومن المهمّ القول إنّ الفرق بين الحكاية والسيرة أنّ الأخيرة تتبع حياة شخص منذ ولادته، ومن خلاله يتمّ استعراض الأحداث العامّة الكبرى، وفي الغالب، فإنّ البطل / صاحب السيرة ينطوي على عدد من الصفات المتميزة والمتفردة، ومنها: الشجاعة، والكرم، والذكاء والفروسيّة وأحياناً قول الشعر، والفرد في النصّ الملحمي بطل الرواية ينشأ من الاغتراب عن العالم الخارجي، من خلال الإحساس بالتناقض بين القيم التي يؤمن بها وصورة الواقع السائد، وهذا التناقض هو الذي وصفه لوكاتش بالجدل الذي يقضي إلى العيش في منطقة المتخيّل كمادّة للحكي.

وتبدأ حكاية الأميرة ذات الهممة باستعراض حياة ثلاثة أجيال سابقة لولادتها، حيث يمهد بالصراع التاريخي بين قبيلتي بني سليم وبني كلاب، الذي بقي مستمرًا حتى أفول الامبراطورية العثمانية في ما سمي «حروب قيس ويمن».

(٢) يوسف إسماعيل، الرؤيا الشعبية في الخطاب الملحمي عند العرب، سيرة الأميرة ذات الهممة نموذجًا، دراسة تطبيقية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق -

الخليفة الهدايا وينصبه أميراً على القبائل العربيّة، وبعد زواجه من ابنة عمه يكلفه الخليفة بجمع القبائل للالتحاق بالجيش التي تقصد فتح القسطنطينية.

وتقول السيرة إنّ الصحاح رزق بمولودين هما: ظالم ومظلوم، وعهد بالإمارة للمولود الذكر، ولم يكن مظلوم سوى (ذات الهمة) التي اخفتها الخادمة وربتها بعيداً عن القبيلة، وبعد أن شبّت ذاع صيتها كفارسة، والتحقت بقبيلتها، ورأت جور عمها وابنه الحارث الذي طلب يدها فرفضت، وحين ألح عليها اشترطت منازلته في مبارزة، وهزمته فاستعان بالخليفة، وقبلت بالزواج منه بشروط، وحينما حملت بمولودها تركت القبيلة ونذرت نفسها للقتال، ووضعت ولداً اسود اسمه عبد الوهاب، وخاضت معارك طويلة لإثبات نسب ابنها لزوجها الحارث، ولكنّ الأخير ووالده هربا إلى بلاد الروم.

وتواصل ذات الهمة حروبها بعد أفول الدولة الأمويّة وانتصار العباسيين مستعينة بالقبائل العربيّة، وبرجل اسمه أبو محمد البطال الذي يجيد الحيلة لمواجهة القاضي الفاسد عقبة السلمي الذي يحيك المؤامرات لتنتصر في النهاية على العدو الخارجي والداخلي.

سرد الهامش

تبدو حكاية «سيرة الأميرة ذات الهمة» في سياقاتها قد وضعت الأحداث وفق انتقائية تاريخية لرسم ملامح شخصية السيرة الأنثوية التي اختارتها بقصد وإصرار، وهي دلالة تؤكد الانحياز للفئة الهامشية في المجتمع، ومنها المرأة، ولكنها تشير إلى المرأة الولود التي تحافظ على السلالة وتراثها وقيمها، وقدرتها على إدارة الصراع واستمرار الحياة رغم الصعوبات كلّها والتحديات والمؤامرات.

الأحداث في السيرة تتوالى كأنّها مرسومة مسبقاً للوصول إلى الرسالة التي تحملها الحكاية، وتسير في خط واحد، وتكرّر الوقائع نفسها للوصول إلى ولادة «الأميرة ذات الهمة» ضمن طقس قدرى، وكأنّها «المهدي المنتظر»، وتسير الأحداث بسرعة، وتنمو الشخصيات دون نضح، كما يقال في المثل «مثل ابن

وفي إسناد الراوي أو كاتب السيرة الأوّل البطولة للمرأة، احتيال على المؤلف، بمفارقة الصفات، وهو ما يشكل صدمة للمتلقي وهو يتابع صورة المرأة التي تجندل الرجال وتهزم الأبطال، وربما كان اختيار المرأة «بطلة» هو الشعور العام الذي أصاب مجتمع السيرة من ضعف الرجال وهوانهم. ومهدّ الراوي لتبيان ذلك بالسرد لاستعراض حال القبائل العربيّة وصراعاتها التي لا تنتهي، وأراد بالتكرار أن يشير إلى أنّ الأحداث تعيد نفسها باختلاف الأسماء منذ الحارث الكلابي إلى الحارث بن مظلوم بشكل دائري، وانتقائي، ولجأ إلى تجميع الحكاية /السيرة من أحداث متفرقة بين قصص جرت زمن الجاهليّة وأخرى واقعية ضمن الحقب الأمويّة والعباسيّة والفاطميّة، ومنها: حكاية مولودها عبد الوهاب ذي البشرة السوداء التي تتشابه مع سيرة عنزة بن شداد.

ومما جعل من السيرة تنتمي للملحمة أنّ أحداثها وقعت في

الشر، وترفض الظلم والطغيان، وتسعى إلى الحرية» (٣). إنَّ «سيرة ذات الهمة» كانت قد انتعشت في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديدًا في الفترات التي ظهرت فيها حالات ضعف الأمة نتيجة الغزو الخارجي، واستشرى فيها الفساد الداخلي نتيجة ضعف النفوس وغياب القيم وعوامل الاستلاب، وهو في الغالب ما يتحملة مجتمع الذكورة/ السلطة، فيعود الراوي لاستعادة البقع المضيئة في التاريخ العربي وتراثه، فالسير والملاحم الشعبية هي قصص تمجد البطولة التي يكون محور الصراع فيها النضال القومي ضد محتل غاصب أو عدو للوطن، وتتطلب أبطالاً لهم مواصفات خاصة سواء أكانوا من الرجال أم النساء، فيعيد الراوي نسج الحكاية باقتراحات تستبعد المسؤولين عن الحقب السابقة التي تركت ظلال الهزيمة والانكسار، فلا يجد غير الصفة «غير معرفة» لامرأة اسمها «ذات الهمة» «البطل المنتظر» لينسج بمتخيله الحكاية التي تستنهض الهمم. فوظيفة الحكاية الشعبية/ السيرة التعويض عن عدم مقدرة الإنسان على تحقيق رغبات معينة مما يستدعي تغير وسيلة النص ومحتواه وشكله. وكما يقول محمد برادة: إن تحديد الخطاب الثقافي العربي يرتبط بسيرورة وثيقة الصلة بشروط إنتاج ذلك الخطاب وتصريفه وتفعله، ... لأنَّ معاودة النهوض بالمشروع العربيّ تستدعي جذريّة الطرح على ضوء ما بينت التجربة من انحدار وانكسار وتفجر للتناقضات والمكبوتات.



(٣) حول العلاقة بين المرأة والحكاية الشعبية، هيا صالح، نقطة ضوء، 19 - 11 - 2010. الرابط: <http://www.n-dawa.com/articles.php?cat=13&cid=421>

أزمان انتقاليّة تموج بالفتن والصراع على السلطة، ومنها: الثورة العباسيّة ضد حكم بني أميّة، ومدّة الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون، والفترات التي لحقت بها حينما عم الفساد من المتنفذين والأدعياء، وخرجت السلطة من يد العرب بتحكم الوزراء والجواري والأعاجم، وهي المدّة التي ظهرت فيها الحكايات والسير التي تبرز فيها المرأة بطلة للحكاية. وكما حملت «ألف ليلة وليلة»، وحكايات ابن المقفع الإسقاطات السياسيّة من خلال الإشارات والرميزات، فقد انطوت سيرة الأميرة ذات الهمة على عدد من الإشارات حول الظلم، والصراع الدمويّ على السلطة الذي يمزق المجتمع، ويتيح المجال للمؤامرات، واستقواء المحتالين من خلال الهيمنة على الناس بالخزعبلات التي ينسبون لها للدين، ومن هؤلاء القاضي عقبة السلمي الذي كان يسهم بدعمه الجواسيس في إضعاف الدولة المواجهة الروم لأهدافه الذاتية.

امتلاك فعل الحكوي

إن اختيار البطولة المطلقة للمرأة في «سيرة ذات الهمة» جاء ضمن سياقات منطقيّة في ظل المناخات التي كانت تسيطر فيها المرأة على صاحب القرار وانتشار حياة اللهو وتحكم الجواري بالسلطة، وتحديدًا في المراحل المتأخرة للحكم العباسي ومن ثم الفاطمي إذ لا يخلو اسم الدولة من انتساب دال. ويمكن فهم إسناد البطولة للمرأة بسبب النجاح الذي تحقّق في حكايات «ألف ليلة وليلة»، وحكايات ابن المقفع والزيبي في جوانب الإسقاط السياسي وحنكة المرأة وحيلتها، وليس ببعيد عن ذلك أنّ المرأة هي التي قامت برواية الحكاية في ظل ما تراه من ضعف في المجتمع الذكوري وسرديته. «وإذا كان الرجل قد سير الحكاية الشعبيّة منذ القدم، باتجاه تصوير مغامراته وبطولاته، في الغالب، فإنّ المرأة لم تجد بدأً من تمجيد هذه المغامرات والبطولات، والثناء عليها، وتخليدها، عبر فعل «الحكي» الذي جعل هذه الحكايات حيّة إلى يومنا هذا، بما فيها من نماذج إنسانيّة تحمل قيمًا إيجابية تُحتذى، وتقف في وجه